أن يكون المرء أستاذاً
إلى عبدالغفار مكاوي

بقلم: د./ أنور مغيث(*)

كنا نعرفه قبل أن نراه. كنا نحن الطلاب اليساريون في الجامعة في سنوات السبعينات. فقد كنا نحفظ ترجماته لقصائد بريخت التي تلهبنا حماسا. وكان كتابه ثورة الشعر الحديث انجيلا لذوي الموهبة الأدبية الذين يعدون أنفسهم كي يكونوا أدباء طليعيين.

شكّلنا له في خيالنا صورة نمطية لأستاذ متمرد، طويل الشعر، مكفهر الوجه عالي الصوت. ولكن حين التقينا بالدكتور عبد الغفار مكاوي أستاذًا لمادة الفلسفة الحديثة وجدنا رجلا أنيقا مهذبا خفيض الصوت. ورغم هذه الرقة البادية، كان شديد الاقتضاء من طلابه، فقد حدثنا عما سندرسه من موضوعات ولكنه لم يقرر علينا كتابا. وكانت هذه هي المرة الأولى التي ندرس فيها مادة بغير كتاب مقرر. حدثنا عن كتب كثيرة كنا نقرؤها فنجد القليل من محتوياتها يتعرض بصورة مباشرة لما سنمتحن فيه، والكثير كان، من وجهة نظرنا، بعيدًا عن الموضوع. والآن حين ننظر في تأمل لسنواتنا التي مرت نجد أن تكويننا الفكري يدين بشكل أكبر لتلك الموضوعات التي قرأناها عرضا، والتي وضعها الأستاذ في طريقنا حينما لم يقرر علينا كتابا. كان الأستاذ كثيرا ما يطلب منا الحوار والمشاركة، ولكن جهلنا كان يعوقنا حتى عن طرح أسئلة تكون ذات صلة بالموضوع ويكون لها معنى.

كان الأستاذ يحاضر لنا في المدرج عن هيجل. وكان يحدثنا بصورة تحمل تقديرا لهيجل ودوره المهم في تاريخ الفلسفة. وطلبت الكلام من موقعي وأذن لي الأستاذ، فألقيت بعض انتقادات لهيجل كنت قد قرأتها في كتب التبسيط الماركسية. فقال لي الأستاذ: واضح أنك

(*) أستاذ الفلسفة بكلية الآداب - جامعة حلوان.

مهتم بهيجل. الأسبوع القادم سوف أترك لك موقعي هذا لمدة نصف ساعة كي تلقي على زملائك محاضرة عن هيجل. وجدت نفسي في ورطة كبرى، فلم يكن لي رصيد في معرفة فلسفة هيجل سوى تلك السطور التي نطقت بها، فمن أين لي أن ألقى محاضرة عن هيجل. لازمت المكتبة طيلة هذا الأسبوع لأقرأ ما ترجم من أعمال هيجل وما كتب عنه. وصار الأمر تقليدا بعد ذلك، واتيح لطلاب آخرين أن يحاضروننا عن فلاسفة آخرين.

كان صوت الأستاذ هادئا، يبدو متأملا أكثر منه محاضرًا، ولكن خلف هذا الهدوء كان يعرضنا لأشد أنواع القلق والحيرة. لم يكن الأستاذ يميل إلى أن يلقي في وجوهنا بأراء صادمة، ولكنه كان يدفعنا دائما إلى مراجعة كل ما استقرت عليه عقولنا وإلى وضعه موضع المساءلة. ولم يكن في ذهننا ما هو أكثر استقرارا من موضوع الشك المنهجي عند ديكارت والذي حفظناه عن ظهر قلب منذ الثانوية العامة. ويتساءل الأستاذ، كيف يمكن للشك أن يكون منهجيًا أو مؤقتًا. إن الشك أزمة وجودية تفرض نفسها على الإنسان ولاتتم باختياره، لا يخضع الشك لسيطرة الإرادة ولا يكون مجرد مرحلة في برنامج ذهني. ثم ألا نطلق على ديكارت مؤسس العقلانية الحديثة بعبارته المشهورة «أنا أفكر إذن أنا موجود».ولكن كيف جاءه الحدس بهذه الحقيقة؟ ألم يكن أمام مدفأته بين النوم واليقظة؟ أكان لابد للوعي أن يغفو حتى نكتشف أهمية العقل؟ هكذا كان علينا إعادة قراءة ديكارت، وإذا بنفس الكلمات ونفس السطور التي كنا قد قرأناها من قبل تكتسب معنى جديدا، ويتحول كتاب المقال عن المنهج إلى عمل أدبي درامي يشارك القارئ فيه ديكارت في أزمته الوجودية.

هنا يعمل الأستاذ على زعزعة كل صور اليقين الزائف التي تملأ عقولنا، وتلك الأحكام اليقينة التي نطمئن إليها فتعفينا من التفكير. باختصار يعمل على إرباكنا. ويعتبر الدكتور مكاوي في كتابه الصادر فيما بعد «لم الفلسفة؟» أن الإرباك هو الدور الأساسي للفلسفة. وهو دور عظيم لأنه هو السبيل لتخليص العقل من التعصب العقائدي والوصول إلى الحكمة الحقيقية.

لم يكن لدى الدكتور مكاوي مذهبا فلسفيا معينا يدعونا إليه. وكنا قد درسنا بالفعل على أساتذة كبار يدعون لمذاهب وجودية أو برجماتية أو وضعية منطقية أو ماركسية. أما مع الدكتور مكاوي كان الأمر يختلف، فهو يصعب تصنيفه داخل مذهب معين، ولم يكن لديه أحكاما يروجها لنا، ولا مذاهب ينفر منها ويوصينا بالابتعاد عنها. لقد كانت غايته الأساسية

هو أن يوفر لنا الشروط التي تجعلنا نفكر بأنفسنا؛ أن نصبح أفرادا مستقلي العقل والإرادة، أي أن نكون أحرارا وبالتالي نكون مسئولين، لا نلقى بتبعة أفكارنا على هذا الشيخ أو ذاك الإمام. وبذلك كان يقوم ببراعة بدوره التنويري بالمعني الكانطي، حيث أن كانط في مقاله ما هو التنوير انتهى إلى اعتبار أن هدف التنوير هو أن يكون الفرد قادرًا على أن يفكر بنفسه.

كنا في سعينا الحثيث للحصول على أعلى الدرجات بحسب النظام التعليمي الذي كنا أسرى له، نحاول أن نسوق في أوراق الإجابة من الأراء ما يرضي الأساتذة المصححين، حتى وإن لم نكن مقتنعين بها. أما مع الدكتور مكاوي فلم نستطع التوصل لأراء معينة كفيلة بأن تجعله يرضى عنا ويمنحنا أعلى الدرجات، ولهذا كان كل منا يكتب الرأي الذي يراه صحيحا ويدافع عنه بحجج عقلية، أي باختصار كنا نجاوب ونحن نشعر أننا أحرار ولدينا الجرأة والقدرة على أن تكون لنا رؤيتنا الشخصية. وبدا لنا بعد التجربة أن هذا بالضبط هو ما كان يرضيه.

تعلمنا مع الأستاذ في كتبه ومحاضراته أن نتعامل مع الفلسفة بطريقة جديدة. فقد كنا قد تعودنا، حينما يتعلق الأمر بعرض مذهب فلسفي معين، أن نعرض أولًا الفلاسفة السابقين عليه والذي تأثر بهم الفيلسوف أو مهدوا له الأرض. وبعد ذلك نعرض لمذهب الفيلسوف ثم نتحدث عن الفلاسفة الذين جاءوا بعده وتأثروا به. وهي طريقة تتبع النموذج الخطي حيث يسير الفكر في خط مرسوم متسلسل زمنيًا، ويكون فيه الفلاسفة السابقون سجناء في مستقبلهم والفلاسفة اللاحقون أسرى لماضيهم. أما مع الدكتور مكاوي فقد كنا نلاحظ أن الفلاسفة يردون في تناوله دون مراعاة للتسلسل الزمني ودون صلة مباشرة بالموضوع، وتتجاور أسماء فلاسفة لا توجد بينها صلات قرابة واضحة لأن الصلة يقيمها الباحث نفسه. تتحول الفلسفة مع الأستاذ من ممر ضيق نسير فيه مجبرين إلى حديقة غناء ندخل إليها ثم نتجه فيها يمينا أو يسارا كما يروق لنا. وهكذا، من فكرة لدي فيلسوف معين، يمكننا أن ننطلق في جميع الاتجاهات. وهنا يتبع العرض نموذج الشبكة وليس الخط، كما هو الحال أمام شاشة الحاسوب، يمكنك من خلال مجموعة من الروابط أن تواصل الخروج من فكر الفيلسوف وتعود إليه. بهذه الطريقة تعلمنا الفلسفة من أستاذنا. ثم قام بالتنظير لها بعد ذلك الفيلسوف الفرنسي جيل ديلوز. فهذه الطريقة هي الأنسب، من وجهة نظر جيل ديلوز، للحفاظ على حيوية الفلسفة. فالطريقة التقليدية تحول مذهب الفيلسوف إلى جثة هامدة ويتحول الشرح إلى تشريح لها. إن مذاهب الفلاسفة العظام هي في نظر ديلوز بمثابة مدافع ثقيلة يصعب تحريكها، ومهمة

مؤرخ الفلسفة عبر منهجية الشبكة هو صهرها وتحويلها إلى أسلحة صغيرة تصلح لحرب الشوارع.

وكان أهم مايميز الفلسفة عند الأستاذ هو هذا المزج البديع والمبدع بين الفلسفة والأدب، سواء في استدعاء الأعمال الأدبية الكبرى للمساهمة في توضيح الموضوع الفلسفي، أو في أسلوب التعبير الأدبي في الكتابة الفلسفية.

وفي منتصف السبعينيات كان الدكتور فؤاد زكريا قد وجه على صفحات الجرائد نقدا لعصر عبد الناصر، وانبرى للرد عليه كثير من المثقفين اليساريين والناصريين. فذكروه بالرثاء الذي كتبه في أعقاب الموت المفاجئ للرئيس عبد الناصر في افتتاحية مجلة الفكر المعاصر التي كان يرأس تحريرها. وهو ما يعني اتهامه ضمنا إما بالجبن أو بالنفاق أو بالتناقض. ورد الدكتور فؤاد زكريا مستغربا كيف لم يستطع هؤلاء المثقفون التمييز بين لغته الجافة واللغة الشاعرية للدكتور عبد الغفار مكاوي كاتب الرثاء. وحينها سألت الدكتور مكاوي إذا كان هو كاتب الافتتاحية، فقال: نعم، ولكنني ماذا قلت؟ لقد قلت أن هؤلاء الملايين من الفقراء الذين خرجوا وراءك ليبكونك هم من زرعت في نفوسهم الأمل ولكنهم لم يحصلوا على شيء. درس جديد نتعلمه من أستاذنا في أن رقة العبارة لا تتعارض مع راديكالية النقد، وأن النقد لا يحتاج بالضرورة إلى العبارات الغليظة.

لقد أتاحت لي الظروف أن اقترب أكثر من الأستاذ عندما أصبحت طالبا في قسم الامتياز المخصص للطلاب المتفوقين، وكنا اثنين. ذهبت إليه أنا وزميلتي لنطلب منه أن يدرس لنا مادة الفكر الشرقي، فوافق ودرسنا معه ترجمته الرائعة لكتاب الطريق والفضيلة للحكيم الصيني القديم لاو تسو. وهوكتاب مكون من قصائد صغيرة، تقول إحداها:

هذا الذي ترونه يمر من تحت أقواس النصر

وتهتف له الجماهير ليس هو البطل

لقد أنجز البطل عمله وذهب تحت جنح الظلام إلى النهر

وأخذ قاربا وعبر إلى الضفة الأخرى... واختفى في الغابة.

هذه القصيدة تجسد لنا في آن عقيدة الدكتور مكاوي وشخصيته، فهو ينفر من الضجيج، ويرى كما يرى نيتشه أن العمل يصبح أكثر ابتذالا وأقل تأثيرا حينما يشيع بين العامة. وهذا الاقتضاء من الذات والترفع عن الشهرة الزائفة هو تحقيق لفكرة هيدجر التي طالما حدثنا عنها الأستاذ بشغف وهي فكرة الوجود الأصيل، الذي يكون عبئا على المرء فيسعى إلى الهرب منه في الثرثرة والغرق في تفاهات الحياة اليومية.

كان الدكتور عبد الغفار أستاذًا بحق لأنه، وكما كان هيجل يقول عن سقراط، هو الفيلسوف الذي عاش فلسفته في حياته. لقد كان لدى الدكتور مكاوي، الإنسان والفكر كيان واحد.

obeikandl.com